قراءة في فكر وليد معابرة من خلال كتابه "ذكريات خبيثة "

أ.د محمد حسن عوّاد*

فاطمة محمد حسن إسماعيل**

تاريخ تقديم البحث:٢/٢/٢٠٢٠م. تاريخ قبول البحث: ١٦/٦/٢٠٢٠م.

ملخص

هذ البحث قراءة في فكر وليد معابرة من خلال كتابه "ذكريات خبيثة" وقد كشفت القراءة أنّ وليداً مفكر عميق، ومثقف واسع الثقافة، وناقد بصير بالقضايا التي يعجُّ بها المجتمع العربيّ كافة. وقد وزعنا البحث على مقدمة وتمهيد، وأبعاد خمسة هي: البعد الإسلامي، والبعد العربي، والبعد الوطني، والبعد التّاريخي، والبعد الأدبي واللغوي.

والبعد الإسلامي هو الأساس الذي يصدر عنه وليد في الحكم على الأمور، ثم أعقبنا ذلك بخاتمة رصدنا فيها ما توصلنا إليه من أفكار.

الكلمات الدالة: البعد الإسلامي، البعد العربي، البعد الوطني، البعد التاريخي، البعد الأدبي واللغوي

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الأردنية. الأردن.

** جامعة آل البيت، الأردن.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

A Reading of Waleed Maabra's Thoughts through his Book "Zekrayat Kabeesa"

Prof. Mohammad Hasan Awwad

Dr. Fatima Mohammad Hasan Ismael

Abstract

This is a research paper that handles Waleed Maabra's thoughts in his book "zekrayat kabeesa".

The study reveals that waleed is a deep intellectual, a highly educated person with a wide knowledge and a distinctive critic for all issues that relate to the whole Arabic society.

The research paper is divided into different sections: an introduction, and five dimensions: the Islamic dimension, the Arabic dimension, the national dimension, the historical dimension, and the literary and linguistic dimension and this is the basis that Waleed relies on in his judgement on things. After that, a conclusion is added to sum up all the concepts and ideas of this paper.

المقدمة:

هذه قراءة في فكر وليد معابرة من خلال كتابه "ذكريات خبيثة"، والكتاب معالجات لقضايا سياسية، واجتماعية، وتاريخية، واقتصادية، صاغها قلم وليد بأسلوبٍ نقدي ساخر لاذع يبغي من ورائه الإصلاح واستنهاض الهمم ولا يبغي الشماتة.

وجرى البحث في تمهيدٍ وأبعاد خمسة، فأمّا التّمهيد فقد سلّطنا فيه الضوء على طائفة ممن برعوا في الأدب والفكر من غير المختصين بالعربيّة، وأمّا الأبعاد فهي البعد الإسلامي، والبعد العربيّ، والبعد الوطني، والبعد التّاريخي، والبعد الأدبيّ واللغوي. ويلاحظ أنّ البعد الإسلامي هو الأصل والأساس الذي يبنى عليه فكر وليد، وهو المحرك له، هو المصباح الذي يبدد به ظلمات القضايا، هو المعيار الذي يزن به الأمور. وأمّا الأبعاد الأخرى فهي فروع إذا ما قيست بذلك الأصل الكبير.

ثم ختمنا البحث بذكر طائفة من الأفكار الإبداعية التي توصل إليها فكر وليد المتوقد.

وكشف البحث أنّ وليداً مفكر عميق التّفكير، ومثقف واسع الثقافة، وناقد بصير لا يقف نقده عند الأشكال والرسوم، بل يتجاوزها لباب المسائل وأعماقها.

تمهيد:

اللغة العربيّة لم تكن في يومٍ من الأيام حكراً على طائفة من النّاس يمتهنونها ويؤثرون التخصص بمسائلها دراسة وتدريساً، ولكنّها رسالة حضارية وإنسانيّة، وملك لكلّ من آنس في نفسه القدرة على التّعبير بها، والفقه في أسرارها، والتّوغل في أنظمتها.

ولقد ظهر في القرن العشرين طائفة من العلماء والأدباء والشّعراء والفلاسفة لم يختصوا بالعربيّة ولكنهم أحبوها، وذابوا في بيانها المشرق، وأثبتوا جدارةً في الميدان الأدبيّ والفكريّ ولفتوا الأنظار إلى سمو بيانهم، وسمو ما قدموه من روائع الفكر والأدب، نذكر منهم الأديب الدكتور محمد حسين هيكل (حقوقي) صاحب" زينب" "وثورة الأدب" وغيرهما، والأديب توفيق الحكيم (حقوقي) صاحب المسرحيات العديدة، والمفكر الدكتور زكي نجيب محمود (فلسفي) صاحب "المنطق الوضعي" و "تجديد الفكر العربي"، و "ثقافتنا في مواجهة العصر"، والمفكر الأستاذ مالك بن نبي (مهندس كهربائي)، الذي أغنى المكتبة العربيّة بكتب فكريّة عميقة تدل على علمٍ غزير، وثقافة واسعة من مثل: "مشكلة الثقافة"، "والظاهرة القرآنية" و "في مهب المعركة "ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" و "شروط النهضة" و"الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" وغيرها، والدكتور عبد الرحمن بدوي "فلسفي"، وهو مفكرٌ وشاعرٌ أغنى المكتبة العربيّة بمؤلفات في الفلسفة وتاريخها من مثل: "مذاهب الإسلاميين" "والزمان الوجودي"، "والمنطق الصوري" وغيرها.

والمهندس الشّاعر علي محمود طه صاحب "الملاّح التائه"، والنّاقد الشّاعر الطبيب الدكتور أحمد زكي أبو شادي، والدكتور الطبيب إبراهيم ناجي صاحب قصيدة "الأطلال"، والجغرافي الدكتور محمد عوض محمد الذي ترجم "قواعد النقد الأدبي "لكروبي".

وقد ألّف الدكتور أيمن العتوم كتاباً وسمه ب "هندسة الكلمات مهندسون شعراء" ساق فيه طائفة من الشّعراء الأردنيين وطائفة من أشعارهم ومن هؤلاء الشّعراء المهندسين: حيدر المومني، وخالد سعدات، ورضوان الزواهرة، وعامر حيمور وغيرهم.

والأعلام الذين سبق ذكرهم يرتبطون بالتّراث ارتباطاً متفاوتاً، ولكن يجمعهم البيان العربيّ الصافي، والثّقافة العربيّة الإسلامية ممتزجة بالثّقافة الإنسانيّة، وبينهم وبين المتلقي ضروب من القواسم المشتركة، غير أنّ الأدب العربي والأدباء العرب أخذوا في التّحول رويداً رويداً في أعقاب الحرب العالمية الثّانية، وظهور حركة الشعر الحر أو شعر التّفعيلة، بعد هذا التّاريخ أخذ الأدب العربي والشعر العربي يغرقان في الضبابية، والرمزية المقفلة التي انقطعت بها السبل عن أرض الواقع، ووقع الشعر العربي في بحار من الضياع والتيه والظلمة، يعكس ما يعانيه أصحابه من ضياع وانحراف عن الرؤى الصحيحة، والانخلاع التّام عن الرؤية القرآنية الحضارية الإنسانية العظيمة، وجريه وراء التّقليد الأعمى للأنماط الأدبيّة الشائعة في أوروبا ،من جهة الشّكل والمضمون وصار بين الشّاعر والمتلقي حجاب كثيف من العسير اختراقه.

في هذا الجو الذي رسمته يقف الأستاذ معابرة ليصحح ما اعوج من المسار، ويردّ الفكر العربي إلى مساره الحاق، فالأدب والفكر ينبغي أن يكونا واضحين لأنّ الوضوح لا يعني السطحية أبداً، وإنّما يعني وضوح الفكرة في الذهن، وتبلورها، والغموض لا يعني العمق، بل يعني غموض الفكرة في الذهن، أو ضعف الوسيلة عن جلائها.

معابرة مفكر عميق، ومثقف واسع الثقافة، وناقد اجتماعي ينقد بشدة ما يشيع في المجتمع من علل وأمراض من مثل الكذب، والنفاق، والفساد، وضعف القيم العليا الهادية إلى سواء السبيل، ويستند معابرة في هذا كلّه على منهج إسلامي صافٍ أصيل، ورؤية فكرية إسلامية متينة تعضدها ثقافة عربية وإنسانية، وهو رجلٌ يعشق الصدق، ويتفانى في محبته، ويتوسل بالسخرية للتعبير عن مجمل آرائه وأفكاره.

وسنحاول في هذا البحث أن نرصد المرتكزات التي ترتكز عليها هذه الشّخصية، والأبعاد الفكرية التي تؤمن بها، ورأينا أن هذه الأبعاد تنحصر في أبعاد خمسة هي: البعد الإسلامي، والبعد العربي، والبعد الوطني، والبعد التّاريخي، والبعد الأدبي واللغوي.

البعد الإسلامي:

الإسلام منهج كامل يحدد علاقة الإنسان بنفسه وبربه، وبالنّاس وأحكامه مستنبطة من القرآن الكريم، والسنة النبوية، وإجماع الصحابة، والقياس الصحيح الذي تتوافر فيه أركانه الأربعة بدقة: المقيس، والمقيس عليه، والعلّة الجامعة المانعة، والحكم، والاهتداء بآراء الأئمة الكرام، وأفكارهم السامية.

ومعابرة معتصم بذلك كلّه، حريص عليه، والآية القرآنية تجري في تضاعيف كلامه جريان الدم في العروق لا من باب التوظيف فقط، بل لأنّها فكر راسخ في أعماق وجدانه وضميره، انظر إليه كيف يأسى لحال هذه الأمة التي أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر يقول: "الإنسان الذي ولد في أمة كانت خير أمة أخرجت للناس، ولكن بتغير الظروف في عصرنا الحاضر أدت به إلى الانزياح والعدول عن الحق في بعض الجوانب وليس في أكثرها، مما أدى ذلك إلى انعكاس المفاهيم الناتج عن انحراف الزّمان وتغير أحواله" [١].

ويقول في موضع آخر "أمة وسطاً، سادت بعدلها ورفعت راية الإسلام"[٢] ،ثم كيف تحولت تحولاً منقاداً ذليلاً ترتقب إشارة الغربي.

يقول معابرة ساخراً: "وبات النّصر فيها، يرهن بشمعة غربية تبدد آيات الظلام،"[٣]

ما ورد من كلام معابرة يمثل فكراً إسلامياً أصيلاً صحيحاً، فالله سبحانه وتعالى يقول:

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[٤]

ويأبى الأستاذ معابرة التّبعية المستكينة للغرب، والانقياد الأعمى من غير تبصر يقول: "وبات النّصر فيها، يرهن بشمعة غريبة تبدد آيات الظلام" [٥]، ويقول في موضع آخر: "اعتمدوا على النّقل وجعلوا السيد كالعبد، وتجاهلوا العقل، ورهنوه لصندوق النقد ... ونسير على شريعتهم كتلميذ حفظ درسه "[٦].

(١) (**معابرة، وليد، ذكريات خبيثة**، الطبعة الأولى، دار المشكاة للنشر والتوزيع ،٢٠٢٠، **ص:** ١٤١).

(٢) نفسه، ص :٣٥

(٣) نفسه، ص ٣٥

(٤) البقرة :١٤٣

(٥) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ٣٥

(٦) نفسه، ص ٣٦، ٣٧

ينطلق معابرة في الذي سبق من كلامه من آيات قرآنية كريمة عديدة منها: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِين} (١) ،

وقوله تعالى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} (٢)

وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ } (٣) وقوله تعالى: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ } (٤) ، وقوله تعالى: { وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا } (٥).

ويهاجم معابرة باعة الكلام والمنافقين والفاسدين الذين امتهنوا الكذب. يقول: "منذ زمن والعرب مولعون بالكلام، يتبارزون بالكلام يمدحون، ويرثون، ويهجون بالكلام. ينتصرون لأنفسهم بالكلام. يقاتلون أعداءهم بالكلام، حتى أنّهم بنوا سوقاً لبيع الكلام" (٦) ويقول في موضع ثانٍ: "بين النظرية والتّطبيق، هناك دين يؤمن به بنو البشر، ودين آخر يطبقونه" (٧)

يمتح هذا الفكر من معين القرآن الذي لا ينضب، فالله سبحانه وتعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ } (٨)

وشدد القرآن على المنافقين وبيّن ما يحدثونه من فساد وفتن و زعزعة واضطراب قال الله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ } (٩)

وقوله تعالى: { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } (١٠)، وقال تعالى : { الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ} (١١) ، وقال تعالى: { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ }(١٢)

(١) النساء:١٤٤
(٢) ال عمران: ٢٨
(٣) الممتحنة :١
(٤) آل عمران : ٧٣
(٥) النساء: ١٤١
(٦) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ٢٣
(٧) نفسه، ص ٧٣
(٨) الصف: ٢-٣
(٩) التوبة: ٦٨
(١٠) النساء: ١٣٨
(١١) التوبة :٦٧
(١٢) البقرة :١٤

والبعد الإسلامي الذي يصدر عنه وليد معابرة ليس عنصراً من عناصر شخصيته، ولا هو رافد من روافد هذه الشخصية كما يحلو للخاطر الأول، ولكنه الأساس الذي تتبني عليه هذه الشخصية، وإذا وقفنا على عناصر أخرى فهي روافد لهذا الأساس الحق. ويسخر معابرة من الذين اتخذوا من الدين أو أفكاره أشكالاً ورسوماً أو طقوساً مفرغة من مضامينها كقوله:

"ومنا يذبح على الطريقة الإسلامية خنازير" (١) .

ويسخر من انقلاب القيم وتغيرها فالكذب والجهل فاشيان ونضع الأشياء في غير موضعها. يقول: "نمنح الجلاّد عصا سرقت بأيدينا ... نعزف على القانون إذا صنعه نائبنا لنترجم أصوات القرود إلى زئير ...لا ندرك أننا بالتصفيق ظلمنا أنفسنا إلاّ بعد أن يأتينا في القبر منكر ونكير ... يقال لنا: إنّ جميع الكلاب تعلو وتطير، فنهز رؤوسنا ونقول: لم يعد ذلك بعسير "(٢).

ووليد معابرة امرؤ صادق يمقت الكذب ويبع الكلام كما تقدم، وقد عبّر عن ذلك بسخرية ظاهرة في دولة الأمس في قوله: "كنت وأصدقائي بمهرجان يجلب البؤس فيه سياسي يتحدث عن تاريخ القدس، فأقسم أن يعيدها بحدّ السيف والترس، ويعيد حطين ويقهر اليهود والروم والفرس ... عندها نام الحاضرون جميعاً من شدة اليأس، وبقيت وحدي أستمع لما يباع ويشترى بالفلس، ولكنني مللت طوال الانتظار، فغرقت في النّوم بعد دقائق خمس"(٣) .

ومن المعلوم بداهة أنّ الإسلام حثّ على الصدق وأبى أن يكون المسلم كاذباً في آيات عديدة منها: {وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } (٤)، وقوله تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا }(٥) " وقوله تعالى: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} (٦).

ويتردد في تضاعيف ما كتب كلام كثير يهاجم فيه الكذب، والظلم، والفساد، وخنق الحريات بأسلوب ساخر عميق كقوله: "الإعلام المعاصر ينقسم إلى عشرة أقسام تسعة منها الكذب والعاشر فله

(١) معابرة، ذكريات خبيثة، ص:٣٣.
(٢) نفسه: ص ٣٤.
(٣) نفسه، ص ٢٥.
(٤) الأحزاب: ٣٥.
(٥) الأحزاب :٢٣.
(٦) الأحزاب: ٢٤.

الصدق"[١]، وكقوله: الظلم والقرار عملتان عربيتان... حكومات اتخذت الاستبداد نمطاً استعمارياً حسب الوصف" [٢]، وقوله: "فكتبت مقالاً عنوانه" وجوه يومئذ عليها غبرة"، فاتهموني بنشر فكر زائف أمات الحق فأقبره، فنزلت الصاخة بالوليد النّادم على حالٍ أفقره ... فقد زجوني بسجن انفرادي لم أر إلاّ أعسره ... فصرت مجرماً محرضاً كتب كلاماً وشفّره " [٣].

وقوله: "والظلم أصبح في وطن (أظلم) (أحلك) (أسود) (أبكم)"[٤]، وقوله: "ولكنّ ندائي أزعجهم فانهالوا عليّ ضرباً بالكفوف، واعتبروه هجاءً وتطرفاً خارجاً عن المألوف، فجعل ندائي تطرفاً تجاوز بحريته السقوف، وحبسوني مع جلاّد يتقن الضرب على الدفوف، حتى تورم جسدي واحترقت أغصانه والقطوف"[٥].

ومن المعلوم بداهةً أنّ الإسلام حثّ على العدل ونهى عن الظلم، يقول الله تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [٦]، وقال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ }[٧].

وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [٨]" وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا } [٩]"، وقال تعالى: {ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ} [١٠] .

وعن جابر رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" اتقوا الظلم فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة" [١١].

وقد عقد الإمام النّووي في رياض الصالحين باباً في تحريم الظلم والأمر بردّ الظالم.[١٢]

(١) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ١٠٦.
(٢) نفسه، ص :٣١.
(٣) نفسه، ص ٢٩ ،٣٠.
(٤) نفسه، ص:٣٢.
(٥) نفسه، ص: ٢٦ ،٢٧.
(٦) المائدة: ٨.
(٧) النساء :٥٨.
(٨) النحل :٩٠.
(٩) يونس :١٣.
(١٠) يونس :٥٢.
(١١) النووي، محي الدين، يحيى بن شرف (٦٧٦هـ)، رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين، تحقيق: علي بن حسن الحلبي، ١١٤و١١٥.
(١٢) انظر، النووي، رياض الصالحين ،١١٤ وما بعدها.

ويشيع في تضاعيف كلام وليد معابرة ألفاظ تدل على ثقافة إسلامية واسعة عميقة واعية، يردّ بعضها إلى آية قرآنية، أو حديث شريف كقوله: "قتل الوليد ما أكفره ... وكتابهم ما شاء ذكره... لم أجد إلا كراماً بررة... تصفهم بالوجوه المسفرة... ونصوص الأدباء تشير لوجوهٍ ضاحكةٍ مستبشرة... وجوه يومئذٍ عليها غبرة... فاتهموني بنشر فكرٍ زائفٍ أمات الحق فأقبره... فرأيت فيها زمناً فرّ فيه المرء من أخيه وأمّه وأبيه، وصاحبه وبنيه وفصيلته التي تؤيه".(١)

كلام وليد هذا كله يرتد إلى آياتٍ قرآنية كريمة، مما يدل على تغلغل الثقافة الإسلامية في عقله ووجدانه، وسنرد الآن ما قاله إلى آيات القرآن دليلاً على ما نقول، يقول الله تعالى: {قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ }(٢) وقال تعالى: {كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ } (٣)،وقال تعالى: { بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ }(٤)وقال الله تعالى: { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ }(٥)، وقال تعالى: { وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ }(٦) .

وقال تعالى: { ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَه }(٧) وقال تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ } (٨) وقال تعالى: { يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ }(٩).

ومن المعرفة القرآنية قوله: "آمنت الملائكة بالله ثم سجدت للإنسان فكانوا من المؤمنين، وآمن إبليس بالله، ثم أبى أن يسجد للإنسان فكان من الكافرين"(١٠) يشير إلى قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } (١١).

(١) معابرة، ذكريات خبيثة، ٢٩-٣٠.
(٢) عبس: ١٧.
(٣) المدثر،٥٤-٥٥.
(٤) عبس:١٥-١٦.
(٥) عبس:٣٨-٣٩.
(٦) عبس:٤٠-٤١.
(٧) عبس:٢٠-٢١.
(٨) عبس:٣٤-٣٦.
(٩) المعارج:١١-١٣.
(١٠) معابرة، ذكريات خبيثة، ص:٧٤.
(١١) البقرة :٣٤.

ورأس مقالته "إنّ البقر تشابه علينا " [١]، هي آية قرآنية كريمة يقول تعالى: {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا} "[٢].

ويتحدث بسخرية عن قتال المسلمين بعضهم بعضاً واستباحتهم دماء أنفسهم.[٣]

وقتل المسلم حرام. يقول تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً} [٤] ، وقال تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا }[٥]. "وقال تعالى: {وإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ }[٦].

وعن النّبي صلى الله عليه وسلم :(لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض). [٧]

ومن الجمل القرآنية التي تنساب في ثنايا كلام وليد معابرة قوله: "وأنّ الإعلاميين يعبدون الله على حرف" [٨]، فهذا القول مقتبس من قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } [٩].

وللحديث النّبوي الشّريف صدى قوي في نفس وليد، فهو أساس ثانٍ بعد القرآن في تشكيل شخصيته يقول في حوار بيزنطي: "ولست أرى إلا أن زمن الرويبضة قد أتى برایاته"[١٠]. يشير بذلك إلى حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينصّ أنّ من أشراط الساعة "أن تنطق الرويبضة في أمر العامة. قيل: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: الرجل التّافه الحقير ينطق في أمر العامة" [١١] .

ويسخر معابرة سخرية مرّة واعية تدل على سموه الفكري ممن يسلكون مسالك الشعوذة والدجل في إيراد العلل والأمراض وزعمهم التحكم بالجن متسربلين بسربال الدين، وفعلهم هذا ليس من الدين

(١) معابرة، ذكريات خبيثة ،١٠٣.
(٢) البقرة :٧٠.
(٣) انظر، معابرة، ذكريات خبيثة ،٥٦، ١٠٢.
(٤) النساء :٩٢.
(٥) النساء :٩٣.
(٦) الحجرات :٩.
(٧) النووي، رياض الصالحين، ص:١١٤.
(٨) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ٧٥.
(٩) الحج :١١.
(١٠) معابرة، ذكريات خبيثة ،٤٩.
(١١) ابن منظور، لسان العرب ،١٢/٩.

في شيء. يقول: "إنّ ابنة خالتي قد توقفت مسيرة حياتها بسبب أن أحد المشعوذين قام بإرسال نفر من الجن ليعطل زواجها ... وما زال يحاول إقناعي أن ذلك الزواج قد تعطل بسبب الجن حتى خطر ببالي سؤال، فقلت له: إذا كان بعض المشعوذين الأشرار يستطيعون إرسال الجن لغاية تعطيل زواج بنت خالتك فلماذا لا يقوم المشعوذون الوطنيون بإرسال الجن لتعطيل المفاعل النووي في إسرائيل"(١).

عن عقبة بن عامر مرفوعاً: من تَعَلّق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلّق ودعه فلا ودع الله له"(٢). وروى أبو داود "إنّ الرقى والتمائم، والتِّولة شرك"(٣) .

والتحكم بالجن أيضاً يندرج ضمن هذه الجهالات والشعوذة، وحسبنا قول الله: {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}(٤).

ويوظف معابرة في سياق حديثه عن توحيد المقامات قيمة إسلامية بسخريته المعهودة تتعلق بالميت فيقول: "رضينا أن نكون أمواتاً، نفقات الحكومات: إكرام الميت دفنه. وإذا فصلنا هذا التعبير عن سياقه المجازي الذي يريده وليد معابرة، فإنّ للميت حرمة يجب أن تراعى، ومن ذلك دفنه من غير تأخير مالم يمنع مانع.

روى أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهراني أهله"(٥).

ولمعابرة فهم بالفقه الإسلامي يدلّ على ذلك قوله: "وليد والذين معه طلقوا الفساد وحاربوا نداء النزعة، فكان طلاقاً بائناً بينونة كبرى ما له من رجعة، أصدقائي أحتاجهم كحاجة ظمآن يتوسل الماء دمعة، كيف لا؟ وقد تزوجوا الوطنية زواجاً أبدياً بعد أن شرّعوا تحريم التسحيج وصنفوه كزواج المتعة"(٦).

(١) معابرة، ذكريات خبيثة، ص:١٣٥، وانظر رفضه لأساليب المشعوذين ص:٩٦.

(٢) النبعلي، أحمد بن حجر، تحذير المسلمين عن الابتداع والبدع في الدين، الطبعة الثالثة ،١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ص:١٠٩.

(٣) صنوبر، محمود إبراهيم، من أحاديث رسول الله ،١٩٦٧م، ص:١٠٠.

(٤) الزمر :٣٨.

(٥) النووي، رياض الصالحين ،٣٨٥.

(٦) معابرة، ذكريات خبيثة ،٤٣.

فالطلاق البائن بينونة كبرى لا رجعة له، ومن مشتقات مسألة الطلاق في الإسلام الذي هو أبغض الحلال، وللعلماء تفصيل في هذه المسألة [١]، أمّا نكاح المتعة أو زواج المتعة الوارد في نص وليد الذي سقناه فهو حرام قال الصنعاني: "وفي نهاية المجتهد أنها تواترت الأخبار بالتّحريم، إلا أنّها اختلفت في الوقت الذي وقع فيه التّحريم "[٢] وقال النّووي: "الصواب أنّ تحريمها وإباحتها وقعا مرتين، فكانت مباحة قبل خيبر ثم حرمت فيها ثم أبيحت عام الفتح وهو عام أوطاس ثم حرمت تحريماً مؤبداً"[٣]. وأما الإماميّة أو الجعفرية أو الاثنا عشرية فتجيز نكاح المتعة. قال الصنعاني: "اعلم أنّ حقيقة المتعة كما في كتب الإمامية هي النكاح المؤقت بأمد معلوم أو مجهول، وغايته إلى خمسة وأربعين يوماً، ويرتفع النكاح بانقضاء المؤقت في المنقطعة الحيض وبحيضين في الحائض، وبأربعة أشهر وعشر في المتوفى عنها زوجها، وحكمه أن لا يثبت لها مهر غير المشروط، ولا تثبت لها نفقة، ولا توارث، ولا عدّة إلاّ الاستبراء بما ذكر، ولا يثبت به نسب إلاّ أن يشترط، وتحريم المصاهرة بسببه، هذا كلامهم" [٤].

البعد العربي:

يحظى البعد العربي باهتمام وليد معابرة، لأنّ الفكر الإسلامي الذي آمن به غير مقيد بمكانٍ ولا زمان، بل هو فكر للناس كافة: قال تعالى:

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }[٥]، والتفاضل بين الناس لا يقوم على عرق أو لون بل هو قائم على التقوى وحدها قال تعالى: { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }[٦].

والفكر الإسلامي هو المعيار الذي يزن وليد به الأحداث والقضايا والمسائل التي يعجّ بها المجتمع العربي، لذلك أخذ يسلط أضواء هذا الفكر على هذا المجتمع بطريقته الساخرة الرّامية إلى تنبيه الغافلين إلى مواطن القصور من أجل الإصلاح والنهوض بالأمة، فمن ذلك ما نقع عليه من

(١) انظر الصنعاني، محمد بن اسماعيل، سبل السلام، شرح بلوغ المرام، تحقيق: حازم علي بهجت القاضي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،١٤١٩هـ،١٣ ١٩٩٨م، ١٤٢٩/٣ وما بعدها.

(٢) نفسه، ١٣٣٣/٣.

(٣) نفسه، ١٣٣٣/٣.

(٤) نفسه،١٣٣٣/٣، وانظر: الذهبي: محمد حسين، التفسير والمفسرون، الطبعة الأولى، دار الكتب الحديثة ،١٣٨١هـ-١٩٦١م، ١٩٣/٢

(٥) سبأ: ٢٨.

(٦) الحجرات: ١٣.

أسفٍ وألم في نفس وليد لما يلقاه من تفرق العرب وتشرذمهم خلافاً لقوله تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}[١]

يقول وليد: "تاريخ واحد، وقيم واحدة، ولغة واحدة، ودين واحد، وعادات وتقاليد واحدة نتاجها: متفرقون رغم التوحد"[٢].

ويسخر معابرة من الواقع المزري والانفصام بين حكومات العرب وبين شعوبها، فيقول: "حكومات عربية تعادي شعوبها، والشعوب تطالب الراقصات أن تتفنن حكومات زجّت حريتنا في السجن فرضينا"[٣].

ويستعين وليد بقواعد العربية بغية توجيه لاذع لسياسة العرب وما فيها من انقياد وتبعية يقول: "في لغة العرب يبنى فعل الأمر على ما يجزم به مضارعه. أمّا في سياسة العرب فيبنى فعل الأمر على مدى رضا المفعول لأجله"[٤].

ويرى وليد معابرة ساخراً أنّ ساسة العرب إذا قدّر لهم أن يموتوا فإنّ حال الأمة سيتغير نحو الأحسن يقول: "وما الذي سيتغير إذا مات ساسة العرب، فأجبتها لا شيء، سوى أننا سنصبح من دول العالم الأوّل! فهزمتني قائلة: ألا تعلم أنّ أبطال الأفلام والمسلسلات العربية لا يموتون"[٥].

والأسى يرمض وليداً حين يرى أمته "قد هوت ببارقها، وعلت رايات القهر والمقت، وكسر أنفها، فلم يعد يشتم إلاّ رائحة الموت[٦].

ويعبّر عن ذلّ العرب بعمق وسخرية حين يقول: "متى تمكن العرب أن يبيعوا العزة فقلت في وقت الحزّة واللزّة ... عندما استبدلوا القدس بِ غزة"[٧].

وينقد وليد نقداً ساخراً ساسة العرب الذين يسلكون مسالك الدجالين والمشعوذين والانتهازيين حين يسخرون الدساتير لغايات في نفوسهم يقول: "إنّ جلّ السياسيين العرب القائمين على إقرار قوانين

(١) آل عمران: ١٠٣.
(٢) معابرة، ذكريات خبيثة، ٩٨.
(٣) نفسه، ص:٧٧.
(٤) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ٧٨.
(٥) نفسه، ص :٩٣.
(٦) نفسه، ص:٥٠.
(٧) نفسه، ص:٤٦.

الضرائب يستخدمون طريقة الدجالين والمشعوذين الذين يظهرون في الأفلام العربية البائسة، فهم لا يأخذون أموال الزبائن إلا من أجل الأسياد، والغرابة في الحالتين: أنّ كلمة السر: دستور"[١] والجامعة العربية عند وليد هي جامعة زوجات العربيّة[٢].

ويحدثنا وليد أنّ هناك أخوين أحدهما ناجح، والثّاني فاشل، فأمّا النّاجح فقد التحق مع زملائه لنيل شهادة جامعية، وأمّا الفاشل فقد التحق بأقرانه بجامعة الدول العربيّة[٣].

والحكومات العربية في نظره كالسكاكين لا تتحرك إلاّ لتجرح[٤]، وهكذا يمضي وليد بأسلوبه الساخر العميق وبفكره النير في انتقاد الواقع العربي وبيان مافيه من ظلمٍ وتعسف، وفساد، وتبعية ونفاق، وكذب وسرقات.

ونختم الحديث عن البعد العربي بهذه السخرية "الحمد لله أنّه لم تسجل أية استقالةٍ لأي وزير عربي بسبب السرقة، وهذا مؤشر قوي يشير إلى أنّ القوانين العربيّة قوانين شفافة وعادلة، كما أنّه يشير إلى اكتشاف جديد، هو أنّ البلاد العربية " فيهاش ولا حرامي"[٥].

البعد الوطني:

وعالج معابرة بالمنهج والمعيار والأسلوب الساخر العميق نفسه قضايا وطنية، والبعد الوطني كالبعد العربي كلاهما يخضعان لآلة الفكر السديدة التي اختارها وليد، والحفاظ عليهما يأتي من جهة الإيمان العميق بالفكر الإسلامي الذي يتسم بالعمق والشمول وتخطي قيود الزمان والمكان.

ووليد مؤمن بوطنه حريص عليه ويحب له اطراد التقدم والازدهار، وحبه هذا لم يمنعه من توجيه نقده الساخر لما يجري في الساحة الوطنية من ضروب النفاق، والكذب، والفساد، لأنّ همّ وليد أن تخلو الساحتان الوطنية والعربيّة من كل فساد وكذب ونفاق. من ذلك ما ذكره" في وطني يزرع العفير من تصديق الكذب، وشيوع الجهل، وإدراك الحقيقة بعد فوات الأوان.

يقول: "في وطني نمنح الجلاّد عصا سرقت بأيدينا، في وطني لا ندرك أننا بالتصفيق ظلمنا أنفسنا، إلاّ بعد أن يأتينا في القبر منكر ونكير، في وطني يقال لنا: إنّ جميع الكلاب تعلو وتطير، فنهز رؤوسنا ونقول: لم يعد ذلك بعسير، في وطني: نسمع من التلفاز أننا انتصرنا وأنخنا البعير،

(١) نفسه، ص ٩٦.
(٢) انظر نفسه، ص ١٢٦.
(٣) انظر نفسه، ص ٤٢.
(٤) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ٨١.
(٥) نفسه، ص ١١٦.

فنصدق، ونحن نعلم بأنّ حبل الكذب قصير سنبقى نقول: إنّ الإصلاح سنابل قمح، لندرك بفوات الأوان أنّ الحصاد شعير".[١]

ويقول في موضع ثانٍ "في وطني حكومات لا تدور ولا تستدير، وإذا ألبستنا ثوباً نقول: أنعش الجسم هذا الحرير"[٢]. ويقول في موضع ثالث: "حق المواطن في بلدي قد خلق للدعسة"[٣].

وهكذا يمضي وليد معابرة في نقده اللاذع الساخر الذي يتكئ على الرمز ببصر ثاقب، وفكر عميق.

البعد التّاريخي:

يعوّل وليد معابرة على التّاريخ تعويلاً ظاهراً، لا على أنّه صفحات تقرأ أو سجل يروى من غير تحليلٍ أو موازنة، ولكن لأنّه موطن العظة والعبرة واستخلاص الدروس المفيدة، وموطن الفكرة المتوقدة الخلاّقة المبدعة التي يأخذ بها فكر المصلح المتوقد لإقامة بنيان إصلاحي جديد ينهض بالأمّة بأسرها بل بالإنسانية جمعاء يقول: "فإنّ لقراءة التّاريخ أثراً دلالياً يشير إلى أهميته الكبيرة في حياة الفرد والجماعات، فهو السجل الكامل لمختلف الأحداث التي وقعت بين حقبه القريبة والبعيدة، وبما أنّه من أهم العلوم التي تدرس باستمرار في مختلف المؤسسات العلمية في العالم، لما له من آثار اجتماعية ونفسية قد تسهم في غرس القيم واستعادة أصولها، فلا بدّ من إبراز النقاط التي تثير الإنسان، وتسوق تفكيره نحو ثقافة المعرفة، ومقارنة الأحداث من أجل تسليط الضوء على الحقيقة التي تغرس مفاهيم التّجديد الثّقافي واختيار أنماط التّفكير لكي تمكنه من الحفاظ على الهوية الأصيلة وانتاج التّطور"[٤].

ويقول في موضعٍ آخر: "إنّ اللجوء إلى محاولة قراءة التّاريخ العربي والإسلامي الماجد واستنطاقهما سيظل باعتقادي أساساً لعملية التوصيف الحقيقي للأحداث، ومحوراً من المحاور التي تشير إلى الواقع الحديث وتحدد خصوصية مميزة له لرسم صورة مكتملة الوضوح عن ما نرنو إليه طامحين في إيجاد ما هو أفضل وأرقى في بناء حاضرنا الذي سيكون بدوره ماضياً للأجيال القادمة، وبذلك فإنّ حاضرنا سيصنع مستقبلهم، ومستقبلهم سيكون قاعدة أساسية تبنى من خلالها حضارات الشعوب الآتية"[٥].

(١) نفسه، ٣٣-٣٤، وانظر ص ٨٧.

(٢) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ٨٠.

(٣) نفسه، ص ٦٢.

(٤) نفسه، ص١٥.

(٥) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ١٤٢.

ويوازن بين ماضي الأمة التي كانت خير أمة أخرجت للناس وبين حاضرها الذي أدى "تغير الظروف ... إلى الانزياح والعدول عن الحق في بعض الجوانب، وليس في أكثرها، مما أدى ذلك إلى انعكاس المفاهيم الناتج عن انحراف وتغير أحواله"(١).

وهداه تفكيره العميق إلى أنّ آلاف النّاس الذين ينقادون لفكرة ما أو فلسفة ما إنّما هم في الحقيقة ينقادون لفكرٍ كلي رسمه في الأصل شخص واحد. وهكذا كان الأنبياء هداة البشرية، وهكذا كان المصلحون، وهكذا كان المبطلون أيضاً الذين قدموا أفكاراً فاسدة تبناها من بعدهم خلق يقول: "إذا خالفك الرأي ألف شخص من نفس الفئة العقلية، أو نبذك ألف شخص من نفس الشّريحة الفكرية، فاعلم أنّهم جميعاً شخص واحد فقط فلا يغرّنك عدد المخالفين ولا تجزع من معاداتهم لأنّهم في النّهاية يشبهون ملايين اليهود الذين يعادون شخصاً عربياً واحداً" (٢).

وعن طريق التّاريخ نعرف تعويل الاستعمار الحديث على دراسة تاريخنا، وديننا، ومعتقداتنا، ومذاهبنا، ولغاتنا، وصنوف المعرفة كافة، دراسة مستفيضة لتكون له قواعد ومرتكزات يطيل بسببها أمد وجوده. والنهوض والإصلاح والانحدار والتّراجع، وإن كان ظاهره جمعياً لكنّ أساسه خفوق الفكر الفردي المبدع الذي يمكن أن يؤثر في حياة الجماعة.

والتفت وليد بوعي حاد إلى غياب الفكر المبدع وحضور الادعاء بديلاً منه يقول: "ما التقيت بمديرٍ إلاّ وحدّثني عن نجاحاته وما التقيت بوزير إلاّ وحدّثني عن إنجازاته، وما التقيت بنائب أمة إلاّ وحدّثني عن الإصلاح ... وأخيراً ما تعثرت بفاسد إلاّ وحدثني عن القيم الأخلاقية. ورغم تلك الادعاءات فإنّي لم أر التّطور سائداً في المجتمعات العربية، ولا أدري لماذا؟! ربما لأنّ إكرام التّطور دفنه"(٣).

ويرى وليد أيضاً أنّ جلّ الفكر العربي الحديث أو الثّقافة العربيّة الحديثة يحتاج إلى إعادة نظر يقول: "كم عينٍ نحتاج لنرى، وكم أذن نحتاج لنسمع، وكم عقل نحتاج لندرك، إنّ جلّ الثّقافات العربيّة بحاجة إلى إعادة نظر"(٤).

(١) نفسه، ١٤١.
(٢) نفسه، ص ١١١.
(٣) نفسه، ١٢١.
(٤) معابرة، ذكريات خبيثة، ص ١٢٣.

وهذه الفكرة التي جرت أو أجراها قلم وليد من أعمق الأفكار وأجلها شأناً–في حدود مانعلم –لأنّ الثّقافة العربيّة الحديثة ثقافة مجتلبة تستند إلى ينابيع فكرية، وفلسفات مادية بحتة مباينة تماماً لما ورثناه عن آبائنا من فلسفة قائمة على التّقوى، وعلى الاطمئنان والرضى والتّسليم بما قدّره المبدع الحكيم. وفي الوقت الذي يصل فيه وليد إلى هذا الفكر المتوقد، لا يزال المثقفون المحدثون يتنباهون بما يختزنون من ثقافات مجتلبة ليس لهم حظ قليل أو كثير في إبداعها، وأحسن ما يوصفون به أنّهم نقلة بشرط أن يحسنوا النّقل. فالإصلاح والتّطور والنّجاح والإضافة العلمية جعجعة ولا نرى لها طِحْنا.

ويرقب وليد معابرة بعض الأحداث التّاريخية الحديثة المحزنة في تاريخنا المعاصر ويتسلسل في ذكرها. ففي "مذكرات عجوز "يصرّح وليد بأنّ والدته كانت تدعو لنصرة العباد في فلسطين حين كان طفلاً، ثمّ صارت تدعو لنصرة العباد في فلسطين، وأفغانستان عندما صار فتى يانعاً، ثم صارت تدعو لفلسطين، وأفغانستان، والشيشان حين صار شاباً، ثم صارت تدعو لفلسطين، وأفغانستان، والشيشان، والصومال، حين صار كهلاً، ولما توفيت والدته سمع خطيب المسجد يدعو لفلسطين، وأفغانستان، والشيشان، والصومال، والعراق، واليمن، وسوريا، وبورما، وليبيا، ومصر[١].

وما سقناه عن وليد دالٌّ دلالة قاطعة على أنّ الأمة في تراجع وانكسار، وذلّ يعقبه ذل من غير توقف. وإذا كان وليد أسيان أسفاً لهذا الواقع المرير، ويرمضه ويمضه أن يرى أمته وقد "كسر أنفها فلم يعد يشتم إلا رائحة الموت "[٢].

وأنّه لم يبق لنا "إلاّ كان وأخواتها، ولم يعد إلا ليت من شقيقاتها "[٣]، ذلك كلّه فإنّه لا يفقد الأمل في انبعاث القوة في هذه الأمة من جديد بما تملكه من كرم الجوهر، وأصالة المعدن، ودور الفكر، وكنوز المعرفة. يقول: "ما يطمئنني حقيقة هو أنني متأكد من أن ما نراه اليوم متفشياً في مجتمعاتنا العربيّة والإسلامية ليس إلا طفحاً كالطفح الذي يظهر على الجلد، وسرعان ما ينتهي وتزول آثاره زوالاً تاماً، لأنّ جوهر الإنسانيّة والأصالة الكامنة في النّفوس سيبقى مرتكزاً أساسيّاً يثري[٤] الفكر السليم، ويرتقي بالنفوس إلى درجات عظيمة، ويطهرها من كل علق تعلق بها، وستبقى الأمة بحضارتها وقيمها ومثلها رمزاً سيسطّر الأمجاد المنتظرة بإذن الله تعالى"[٥].

(١) انظر معابرة، ذكريات خبيثة، ص ١٠١-١٠٢.

(٢) معابرة، ذكريات خبيثة، ص: ٥٠.

(٣) نفسه، ص:٨٦.

(٤) كذا ورد في الأصل، ولعلّ الصواب أن يقال: يغني، لأنّ أثرى فعل لازم معناه: صار ذا ثراء. انظر: الجر: خليل، المعجم العربي الحديث ص:٢٠.

(٥) معابرة، ذكريات خبيثة، ص:١٤٢-١٤٣.

ووليد غير قانط ولكنّه متفائل من أنّ هذه الأمة مطوّية على خير كثير، وأنّها خير أمة أخرجت للنّاس "ومهما تداخلت في مجتمعاتنا الحضارات الغربية وتفشت واختلطت السلوكيات والأخلاق بعضها ببعض سيبقى هناك جاذبية تجذب أبناءنا وتلصقهم بأرضهم التي كانت ولا زالت محط الأنبياء والرسل الخالدين، ولن يقدر أحد على تدجينها وتغيير ملامحها وأصولها، وستبقى الأمة التي وصفها الله بأنّها خير أمة أخرجت للناس، وسيبقى فكرنا هو الفكر الخالد الواعي، وسيبقى تاريخنا شاهداً لنا وعلينا، وسيحكي للحاضر والمستقبل أمجاداً لن يطاولها كل شعوب الأرض"[١].

والكلمة عند وليد "هي التي تربي الشعوب، وهي التي باستطاعتها تغيير منهج وأنماط التّفكير لدى أي شعب، ولدى أية أمة "[٢].

ووليد على معرفة طيبة بالتّاريخ الإسلامي من ذلك ما ذكره في مسألة مفاداة أسرى بدر، قال: إذا تعمقت في مسألة مفاداة أسرى معركة بدر وإصرار النّبي على تعليم القراءة للبشر مقابل حريتهم ستدرك أنّك أمام معادلة رياضية خالدة تقول: تعليم إنسان = حرية إنسان [٣].

"روى الإمام أحمد –رحمه الله– بإسناده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل النّبي صلى الله عليه وسلم فداءهم أنّ يعلموا أولاد الأنصار الكتابة"[٤].

ومن معرفة وليد الطيبة بالتّاريخ قوله: "السبب الرئيس في أنّ العلم تقدم وعلا شأنه هو أنّه يأتي بالبراهين قبل الاعتقاد. أمّا فيما يحدث عند جلّ الفرق الإسلامية هو أنّهم يأخذون بالاعتقاد، ومن ثم يلفقون له البراهين[٥].

(١) نفسه، ص:١٤٣.

(٢) نفسه، ص:١٤١.

(٣) نفسه، ص:٧.

(٤) أبو فارس، محمد عبد القادر، غزوة بدر الكبرى، الطبعة الأولى، دار الفرقان للنشر والتوزيع ١٤٠٢هـ–١٩٨٢م، ص:٩٧، وللمزيد من الفائدة فإنّ ثمة ثلاثة آراء في حكم الأسرى، رأي المسلمين وهو الرأي القائل بمفاداة الأسرى، ورأي يقول بعدم مفاداتهم والمنّ عليهم ويرى قتلهم جميعاً، ورأي يرى قتلهم حرقاً، انظر: أبو فارس، غزوة بدر الكبرى، ص:٩٠.

(٥) معابرة، ذكريات خبيثة ،ص:١١٨

ومن معرفة وليد التاريخية الطيبة ما ساقه عن عمر بن الخطاب الذي فرّق بين الحق والباطل[١]. وعن علي بن أبي طالب الذي قال: "لا أريد أن يحرسني أحد من الناس، فأجلي هو الذي يحرسني"[٢]، وعثمان بن عفان الذي جهز جيش العسرة فقيل فيه: ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم "[٣].

البعد الأدبي واللغوي:

عبارة وليد معابرة عبارة حسنة، مستقيمة، رصينة، واضحة لا لبس ولا غموض فيها، معربة عن ذات صاحبها، تصطنع الأسلوب الساخر العميق الدلالة، ولها اتصال وثيق بالتّراث الأدبي العربيّ، وتنهل وتَعَلُّ من الجملة القرآنية، والجملة الحديثية، وتتكئ على الرمز الذي لا يقطع القواسم المشتركة بين المنشئ والمتلقي. ونقع في بعض الأحيان على مفردات ربما غابت عن ذهن المتخصصين من مثل قوله: فحفروا تحت مهدنا أنفاقاً كأنفاق الخُلْد "[٤] والخُلْد–بضم الخاء وفتحها– "الفأرة العمياء، وجمعها مناجذ على غير لفظ الواحد"[٥].

ويجعل وليد رأس مقالة له عجز شاهد نحوي هو: "فإنّ القول ما قالت حذامِ" [٦]، والشاهد بتمامه:[٧].

إذا قالت حذامِ فصدَّقوها فإنّ القول ما قالت حذامِ

ويلاحظ هنا أن وليداً ضبط "حذامِ" بالبناء على الكسر، وهو ضبط صحيح، وتفصيل القول في الشاهد أنّ أهل الحجاز يبنون "حذامِ" على الكسر. وأما بنو تميم فيمنعون صرفه، وذهب فريق منهم إلى التّفريق بين ما ختم بالراء كسفار، وبين ما لم يختم، فالمختوم بالراء يبنى على الكسر، وما لم يختم فهو ممنوع من الصرف [٨].

(١) انظر، معابرة، ذكريات خبيثة، ص:١٠٠.
(٢) نفسه، ص:٩٩.
(٣) نفسه، ص: ١٠٠.
(٤) نفسه، ص: ٣٧.
(٥) ابن منظور، لسان العرب، صورة عن طبعة بولاق، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والترجمة والنشر، ١٤٤/٤.
(٦) معابرة، ذكريات خبيثة، ص:٣٥.
(٧) انظر، الأنصاري، ابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي ١٥٣/١٩٦٦،٣، وابن منظور، لسان العرب، ٨/١٥.
(٨) انظر الأنصاري، ابن هشام، أوضح المسالك ،١٥١/٣، الأنصاري، ابن هشام وشرح شذور الذهب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة التاسعة، مطبعة السعادة، ١٣٨٢هـ–١٩٦٢م، ص: ٩٤–٩٦.

ومما يثير الإعجاب أنّ وليداً وهو المهندس نسب الشاهد للجيم بن مصعب، وهو زوج حذام قال: غنّى لجيم بن مصعب فطنة زوجته حذام [١].

وحذام هذه هي حذام بنت الريان زوج الشاعر، وقيل هي امرأة من عنزة، وأبوها العتيك بن أسلم وقيل هي الزّباء، وقيل غير ذلك [٢].

ولعلّ وليداً سها حين قال "مصعب" والصواب "صعب" أي لجيم بن صعب صاحب الشاهد على الأصح، وقيل الشاهد لديسم بن طارق [٣].

ويراوح وليد في رواية الشاهد وضبط حذام مراوحة البصير العارف يقول:

إذا ما جاءني رجلٌ حُذامُ فإنّ القول ما قالت حذامِ

فصدر البيت من صنعه وحُذام بضم الحاء الرجل لا خير فيه[٤].

وأما حَذام بفتح الحاء وكسر الميم فهو اسم امرأه يقال إنّها حذام بنت الريان زوج لجيم بن صعب، كما تقدم.

ولوليد معرفة لغوية ونحوية طيبة لا تتأتى لدى بعض المختصين في اللغة يسخرها على نحوٍ موفق في نقده السياسي أو الاجتماعي السافر. يقول: "في لغة العرب يبنى فعل الأمر على ما يجزم به مضارعه، أما في سياسة العرب فيبنى فعل الأمر على مدى رضا المفعول لأجله"[٥] ويقول في موضع ثانٍ: "في الواقع اللغوي اللغة العربية لا تبدأ من عند ساكن، ولا تقف عند متحرك، أمّا في الواقع السياسي العربي فإنّ المتحركين يحيكون القرارات ليشقى بها الساكتون" [٦].

(١) معابرة، ذكريات خبيثة، ص:٣٥.

(٢) الأنصاري، ابن هشام، أوضح المسالك حاشية ١٥١/٣، وشرح شذور الذهب ،٩٥، وابن عقيل شرح الألفية تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، حاشية ١ ص:١٦.

(٣) الأنصاري، ابن هشام، شرح شذور الذهب، حاشية ٩٥، وأوضح المسالك، حاشية ١٥١/٣، وابن عقيل شرح ابن عقيل حاشية ١٦/١، وابن منظور، لسان العرب، ٨/١٥.

(٤) انظر، ابن منظور، لسان العرب، ٧/١٥.

(٥) معابرة، ذكريات خبيثة، ص:٧٨.

(٦) نفسه، ص:١١٣.

ويقول في موضعٍ ثالث: "لماذا أمسى فاعلنا اليوم يرفع بالكسرة"[١]، ويقول في موضع رابع: "عندما أعيش المضارع، ألعن الحال، وحيثما تعرفت على الفاعل أجده مرفوعاً بالكسرة، وطالما وجدت المفعول به، أجده مظلوماً بالفتحة، ناديت الضمير ليعود من وعثاء سفره، فعرفت أنّه: لم يبق إلا كان من أخواتها، ولم يعد إلا ليت من شقيقاتها"[٢]

وهذا توظيفٌ من وليد لقواعد العربيّة عميق في خدمة غرضه الأساسي، وهو نقد واقعنا المتراجع في جميع الميادين.

ونقع في كتاب وليد "ذكريات خبيثة" على بعض الألفاظ العامية، كنا نحب أن ينأى عنها، وإن كنا نثق ثقة تامة في أنّ هذا البناء الإسلامي المتين الذي تمثله شخصية وليد معابرة، لا يمكن أن يتراخى في نصرة العربية، أو ينكص عن نصرتها، وأنّ ما ساقه من مفردات عامية أراد بها الإيغال في السخرية من واقعنا الهش المرير. مثل: "أيّها الأمريكيون: كلوا هوا"[٣].

وقوله: "أولاد زغار" يريد "أولاد صغار"، ونحن نعلم أنّ بعض العرب يجعل الصاد زاياً أو سيناً يقال: صقر، وسقر، وزقر، روى ذلك ابن جني عن الأصمعي[٤].

وقوله: "فيهاش ولا حرامي"[٥] ولوليد معابرة معرفة بالأدب فهو يتذوقه ويوظفه كقوله: "فضحكنا ضحك طفلين معاً، وعدونا فطبخنا مقلوبة "[٦].

وبعض ما أورده مقتبس من بيت من قصيدة "الأطلال "للدكتور ابراهيم ناجي يقول البيت:

فضحكنا ضحك طفلين معاً وعدونا فسبقنا ظلنا

هذه هي الأبعاد التي وقفنا عليها ونحن نقرأ كتاب وليد معابرة "ذكريات خبيثة "وقد صاغها قلمه بأسلوبٍ نقدي ساخر لا يرمي من ورائه إلى الشماتة أو الانتقاص من أقدار النّاس، ولكنّه يرمي إلى الإصلاح واستنهاض الهمم. يقول: "فاضطرني أن أنتقد الأوضاع الراهنة من خلال عين المحب لا عين الشامت، واضعاً رسالة الفساد نصب عيون القارئين، علّها تترك أثراً مباشراً يستفزُّ العقول ليحث

(١) نفسه، ص:١١٥.

(٢) نفسه، ص:٨٦.

(٣) نفسه، ص:١٣٤.

(٤) انظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية ،١٣٧١هـ-١٩٥٢م،٣٧٤/١، وانظر السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي ،٤٧١/١.

(٥) معابرة، ذكريات خبيثة، ص: ١١٦.

(٦) نفسه ،٩٤.

على التقدم والوعي واستعادة القيم الاجتماعية والأخلاقية وغرسها في نفوس الأجيال القادمة ،لعلمي الأكيد أنّ الكلمة هي التي تربي الشعوب، وهي التي باستطاعتها تغيير منهج وأنماط التفكير لدى أي شعب ولدى أية أمة"[١].

خاتمة:

رصد البحث طائفة من الأفكار الإبداعية التي توصل إليها وليد معابرة في زمن الانقياد الذليل، وذوبان الشخصية، وكثافة الغبار والتربة التي رانت على العقل العربي المسلم.

وتجري هذه الأفكار على النّحو التالي:

١- وليد معابرة مفكرٌ عميق التفكير، ومثقف واسع الثقافة، ومتين الذهن، وناقد بصير يسبر أغوار المسائل ولبابها، ولا يقف عند أشكالها وقشورها إلاّ بالقدر الذي يعينه على تحقيق غايته.

٢- المنهج الذي آمن به وليد هو المنهج الإسلامي في تناول القضايا والأحداث سواءٌ أكانت قضايا سياسية، أم اجتماعية، أم فكرية، أم أدبية، ويتوسل إلى تثبيت منهجه بسخرية ظاهرة لا يرمي من ورائها إلى الشماتة ولكنه يرمي إلى الوقوف على مواطن العجز والقصور، واستنهاض الهمم للإصلاح الجاد المثمر.

٣- الفكرة التي يصفق لها آلاف الناس بل الملايين أساسها فكرة صادرة عن رجل واحد فلا يغتر الحصيف بكثرة عدد المصفقين.

٤- يمكن أن يتخذ التاريخ منطلقاً لصياغة نهضة جديدة فضلاً عما يتضمنه هذا التاريخ من دروس وعظات وعبر.

٥- وجوب الانخلاع من ربقة التقليد الأعمى للغرب، والحفاظ على الهوية الأصيلة من غير ذوبان أو فناء في الهويات الأخرى.

٦- إعادة النظر في الثقافة العربية المعاصرة، لأنّ فيها خللاً وخطراً وفساداً كبيراً.

٧- الأسلوب الساخر الذي اصطنعه وليد للتعبير به عن مكنون نفسه أسلوب إيجابي لا يريد من ورائه الشماتة، بل الوقوف على مواطن الفساد، والتذكير بوجوب الإصلاح الجاد المثمر.

٨- إنّ من عوامل تراجع المجتمع العربي وارتكاسه في الحمأة ما يشيع فيه من تناقض، وكذب، وفساد، وتناقض.

(١) نفسه، ص: ١٤١.

المراجع

القرآن الكريم.

الأنصاري، ابن هشام، (ت ٧٦١هـ)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار إحياء التراث العربي بيروت –لبنان،١٩٦٦م.

الأنصاري، ابن هشام، (ت ٧٦١هـ)، شرح شذور الذهب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة التاسعة، مطبعة السعادة، ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م.

بدوي، عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣م.

بدوي، عبد الرحمن، المنطق الصوري والرياضي، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م.

البنعلي، أحمد بن حجر آل طامي، تحذير المسلمين عن الابتداع والبدع في الدين، الطبعة الثالثة، الدوحة-قطر ،١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

الجر، خليل، المعجم العربي الحديث، لاروس، باريس.

ابن جني، أبو الفتح عثمان، (ت ٣٩٢هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية، ١٣٧١هـ-١٩٥٢م.

الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، الطبعة الأولى، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٨١هـ-١٩٦١م

السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، (ت٩١١هـ)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

الصنعاني، محمد بن اسماعيل، (ت١١٨٢هـ) سبل السلام شرح بلوغ المرام، تحقيق حازم علي بهجت القاضي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان ،١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

صنوبر، ابراهيم محمود، من أحاديث رسول الله، عمان-الأردن ،١٩٦٧م.

عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار ومطابع دار الشعب، القاهرة.

العتوم، أيمن، هندسة الكلمات (مهندسون شعراء)، الطبعة الأولى، منشورات اللجنة الثقافية نقابة المهندسين الأردنيين، عمان –الأردن ،١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م.

ابن عقيل (ت ٧٦٩هـ)، شرح ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

علاّم، محمد مهدي، مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً، المجمعيون، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، د.ت.

أبو فارس، محمد عبد القادر، غزوة بدر الكبرى، الطبعة الأولى، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، ١٤٠٢ هـ–١٩٨٢م.

معابره، وليد، ذكريات خبيثة، الطبعة الأولى، دار المشكاة للنشر والتوزيع،٢٠٢٠م

ابن منظور، (ت٧١١هـ)، لسان العرب، صورة عن طبعة بولاق، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والترجمة والنشر.

ابن نبي مالك، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، الطبعة الثالثة، دار الفكر، ١٩٦٩م.

ابن نبي، مالك، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر.

النووي، محي الدين، يحيى بن شرف، (ت ٦٧٦هـ)، رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين، تحقيق: علي بن حسن الحلبي، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الرحسة، ١١٤٢هـ